مقدّمة

إن تاريخنا الحضاري غني بروائع العلم والأدب والفن أما تاريخنا العسكري فاكثر غنى واكثر عطاء لكل ما هو مفيد وخالد . بدأت العمل يحفزني أمل كبير في انجاز دراسة تعالج موضوع تطور فن الحرب في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين .

لقد تعودنا دراسة كل معركة من معاركنا بشكل منفصل — ندرس الوضع العام الذي سبقها ثم مسيرة العمليات ونخلص بالنتائج المستفادة . واذا حاولنا دراسة الرابطة بين معركة واخرى فمن قبيل المقارنة لا اكثر ..

بدأت الدراسة على هذه الصورة وانتقلت من معركة الى معركة مع متابعة مسيرة العمليات وتطورها . ثم حملت المواقع على الخرائط وتابعت تطورها في اطارها الزمني وفق جدول توقيت الاحداث فظهرت لي لوحة لا أجمل ولا ابدع ..

— كانت معالم اللوحة الشاملة ، تضيع في الجزئيات وعندما وضعت الجزئيات في اطار زمني ومكاني ظهر الابداع ، كل الابداع .

جيوش قليلة تنطلق من الجزيرة العربية ، قليلة في عددها ، فقيرة في تسليحها ، قوية في ايمانها ، مؤمنة برسالتها ، تتحدى اقوى قوى العالم وتثبت انها على مستوى هذا التحدي فتزيل اعظم دولتين لهما امجادهما العسكرية وقواتهما الجرارة علاوة على امكاناتهما المادية الضخمة .

وتتطور هذه الجيوش في عددها ، وحجمها وتسليحها ، ويتطور تبعاً

لذلك تنظيمها القتالي واسلوبها الحربي . وتزداد ميادين القتال بعـداً وتصبح ساحات العمليات واسعة غير محددة الا بخط الافق . ويتطلب ذلك ادارة للحرب وقيادة للقتال على مستوى عال من القدرة والكفاءة . وهنا تبرز شخصيات العمالقة من القـادة الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والأمويين معاوية ومروان وعبدالملك وهشام وبقية القادة ..

— كان هؤلاء القادة والقادة الاوائل منهم بصورة خاصة ، يعتصمون وراء رمال الجزيرة ، فيعلنون التعبئة ، ويحشدون الجيوش . ويطلقونها الى اهدافها ، ويرساون الامدادات ويتابعون مسيرة العمليات ويعملون على تحديد محاور ثقل الجهد الرئيسي واعطاء الافضليات ، ثم ينقلون القوى من جبهة الى جبهة ومن مسرح عمليات الى مسرح آخر ، ومن ميدان الى ميدان وفق مخطط بعيد عن الارتجال والعفوية وبشكل مثير للاعجاب .

— لقد كان ذلك اروع ما في الصورة الشاملة لتطور فن الحرب عند العرب . بعد أن رجعت الى الدراسة محاولاً نقل هذه اللوحة الاجمالية . كنت اعتزم التوقف عند المعارك الحاسمة فقط والانتقال فوق قممها .

فظهرت صورة اخرى فرضت عليّ الدخول في بعض الجزئيات . لقـد كانت معركة اليرموك معركة حاسمة تبعتها عمليات فتوح سهلة نسبياً . وكانت هذه العمليات بمثابة شاهد على نجاح العرب المسلمين في تحقيق مبدأ استراتيجية الهجوم غير المباشر . وتكرر ذلك بعد معركة القادسية حيث اندفعت جيوش العرب المسلمين حتى احاطت بالهضبة الايرانية بعد سلسلة من المعارك القصيرة والحاسمة ، وكانت هذه العمليات بدورها شاهداً آخر على نجاح هذه القوات والجيوش في تحقيق مبدأ استراتيجية الهجوم غير المباشر . ولم يكن هناك سبيل لابراز معالم هذه الصورة الا باجراء مسح شامل لهذه المعارك .

— ثم ظهرت صورة ثالثة تبعها تطور جديد في فن الحرب . وهذه الصورة هي محاولة « بيزنطية » بالدرجة الاولى ، وبعض الدول المحيطة بالهضبة الفارسية

من جهة ثانية لتحريض جماهير الشعوب ضد العرب المسلمين ولتنظيم ثورة مضادة .

— عمل العرب المسلمون على اتباع اسلوب جديد في الردع ، يتلخص في محاولة القضاء على اوكار التآمر واشغال القوى المحركة للثورة المضادة عن طريق نقل المعركة اليها مع اتخاذ التدابير الوقائية من تحصين للثغور وتنظيم للصوائف والشواتي ؛ ثم كان بعد ذلك تطور فن الحرب في البحر وارتباطه بالمخطط العام للعمليات .

— كنت قد وضعت في البداية حجماً محدداً للكتاب بحيث يتوافق مع روح العصر ومع رغبة القارىء في انهاء الموضوع الذي يدرسه خلال فترة قصيرة ، فعمدت الى التركيز والى استخدام الجداول مع محاولة الاختصار قدر المستطاع ، اختصاراً لا يفقد الموضوع فائدته وجماله ، ولا يصل الى الضياع في متاهة الجزئيات . وكان لا بد من التركيز على بعض النقاط وتكرارها من أجل ابرازها وظهرت المشكلة الجديدة ، مشكلة الحجم الذي تضاعف عما كان قد حدد له في المخطط الاساسي للكتاب .

— ومشكلة اخرى : الري ، قومس . مرو الروذ ، مرو الشاهجان ، مكران . الديبل . سجون جيحون . اصطخر . شيرين ، وغيرها من الاسماء الكثيرة . بعضها لمدن سادت ثم بادت وبعضها لاقاليم تغير اسمها مع مرور الزمن . وكان من المحتم البحث في عدد من المراجع والمخططات القديمة ، لايضاح الصورة . وقد فرض ذلك ايضاً حجماً اضافياً لم يكن في الحسبان ولم يكن بالمستطاع اسقاط بعض المواد على حساب المواد الاخرى فكان لا بد من اعادة التوازن وعدم الانسياق مع اغراء الموضوع في كل مرحلة من المراحل .

— ومضى عام ونيف من التفرغ الكامل والجهد المستمر والدراسة المضنية وكان ذلك كله يضيع بسرعة امام لذة الفائدة والمتعة اللتين تتضمنهما مادة البحث .

ـ ان بناء الحاضر ، والمستقبل على جذور ثابتة يفرض العودة لاحياء هذا التراث الخالد في ثوب يتوافق مع روح العصر .

ـ وان مادة التاريخ مادة جافة في حد ذاتها ، وحاولت تبديد جفافهـا وقسوتها بطرح بعض اللوحات القتالية الرائعة والاستشهاد ببعض ما تضمنه ادب الحرب من شعر وقصة قصيرة .

واخيراً ،

انتهى قسم من الدراسة في عمليات الجبهتين الشمالية والشرقية والعمليات البحرية ، راجياً أن أكون قد حققت بعضاً مما صبوت اليه وان يكون هـذا الكتاب رافداً يرفد معارفنا ...

بسام العسلي